قصة

الرجل الذي يشكو كثيرا

بقلم الدكتور نعيم عطية

لا اعرف ما اذا كان هذا حال الاباء جميعا ، أم أنه حالي انا وحدي ، لما جبلت عليه من قلب خفيف ، وحرص على ابني الوحيد حتى من نسمة الهواء .. عندما نزف هاني من انفه اسرعت الى اخذه الى الدكتور نادر عبد الباري . كثير من الاباء والامهات يعرفونه حق المعرفة. رجل قصير أصلع ، استاذ جامعي له دراسات في افرازات الامعاء والغدد والشحوب وسوء التغذية وفقر الدم .. لا يأتي الى عيادته الا بعد الحادية عشرة مساء . طبيب اطفال ، كتب على باب العيادة وعلى روشتاته المواعيد من ٥ الى ٨ ، اول مرة ذهبت اليه اتصلت بالممرضة فقالت ترتيبك في الكشف الثالث . والطبيب متى يحضر ؟ في السادسة . في الخامسة والنصف تماما ذهبت الى العيادة بابني وامه التي لا تفارقه ، لكن الدكتور لم يكشف على هاني الا في الحادية عشرة والنصف . دخل العيادة في الساعة الحادية عشرة بخطى سريعة ، وقد تأبط حقيبته الجلدية الصغيرة . اخترق الردهة المكتظة باطفال راحوا في النوم في احضان الامهات ، واخرين يصيحون ويبكون من المرض الذي يحرق اجسامهم الواهنة او من البول الذي في الاقماط تحت سراويلهم . مضى مسرعا الى غرفته مثل فأر يجري الى جحره خشية القط ، ولكن غليان قلبك يبرد ويتبدد عندما تستدعيك الممرضة ، وتدخل عليه في حجرة الكشف . تنسيك ابتسامته الوديعة طول انتظارك . انتهى ، فقد كان ذلك في الماضي، وليذهب الماضي الى حال سبيله ، نحن الان في الحاضر ، في الغرفة المكيفة الهواء ، وانت تترقب ماذا سيقوله الطبيب المحنك عن مرض طفلك ..

داعب هاني ببعض الكلمات ، وقرب من انفه بطارية جيب صغيرة والتفت الي قائلا :

ـ اذا رجع له النزيف .. سيحتاج الى عملية كي .. بسيطة.. سأبعث بكم الى الدكتور اسكندر سلطان .

ثم دعت الضرورة ان نذهب بعد يومين اثنين الى طبيب الانف والاذن والحنجرة . كان لا مفر من ذلك . سألت عن عيادة الدكتور اسكندر فوصفت لي .. طلبت من زميلي مرة اخرى ان يباشر عني اعمال المكتب . اصطحبت ابني في الصباح الى دكتور الانف والاذن. عندما دخلت العيادة كان قد انجز توا كل العمليات في الشقة المقابلة، ودخل غرفة المكتب ، اطل علي وابتسم لي سائلا عما نريده . وما ان جلس هاني على كرسي الكشف حتى طالبتني الممرضة بجنيهين ، وكتبت لي ايصالا . صوب الدكتور الى الانف الاسمر الصغير نور مصباح قوي ، واخرج من داخلها بملقاط بقايا دم متجمد ، وقال : لا جدوى .. عملية الكي الساعة الثامنة .. هنا .. هذا المساء .. الفيتامينات لا تجدي .

لاحقني عند الباب صوته قائلا : بس من فضلك .. ما تأخرش عن الميعاد .

هرولت الى مكتبي على امل الا يكون الزبائن قد انصرفوا ، وحتى اعد العدة للتغيب في المساء ايضا . اوصيت زميلي بالمكتب والزبائن، فعملنا يحتاج الى عين ساهرة .. ومثابرة .. حتى لا يفلت زبون وراء زبون ، فيخلو المكتب ، وتتكدس الديون .. والحاله في مهنتنا يخيم عليها الركود ، والدخل يتناقص يوما بعد يوم ، حتى بالنسبة لمن يرابط في مكتبه صباح مساء ، فما بالك بحالي ، وانا في الصباح والمساء في العيادة ؟ صحيح انه ظرف طارىء ، لكن هل يقدر صاحب الحاجة الذي يأتي اليك طالبا ان تنجز له عمله انك عند طبيب أو في ماخور ؟.. الشغل شغل والنظام نظام ، ووقتنا من فلوس . هذا مثل صحيح ، فنحن نبيع لحظات عمرنا وانفاسنا ولساننا وعقلنا وكل شيء في سبيل بضعة جنيهات نسدد بها مطالب الحياة .

ماذا تعني كل هذه الفوضى ؟ باب العيادة لا يقفل . وافدون جدد في كل لحظة . الساعة العاشرة .. الحادية عشرة .. الباب لا يقفل.. الى متى ؟ اجاب المرض مستنكرا : « يعني يقفل على نفسه باب رزقه ؟! » .. حركة الدخول والخروج مستمرة والضجيج يزداد في العيادة ورائحة العرق لا تطاق .

قالت زوجتي في لحظة ضيق :

ـ هو ما فيش غيره في البلد ؟! قوم نروح .. دا الولد حايعيا مننا ..

لكنني فكرت في الجنيهين اللذين دفعتهما في الصباح . هل انا ابيض كل يوم ذهبا ؟ انهما جنيهان . وهما ليسا بالمبلغ الذي يستهين به شخص مكافح مثلي . وهل استطيع ان ادفع كل مرة جنيهين ؟! ومن ادراني ان الطبيب الاخر الذي سأذهب اليه سيكون احسن حالا ، فقد ادفع الجنيهين من جديد ، واجد نفسي في ذات الولد ؟! ثم ان ابني سيدخل المدرسة بعد بضعة ايام ، ويجب ان ننتهي . لا بد اذن من الانتظار وليرحمنا الله !

كان الضيق في اعماقي يتزايد غليانه . تلهفت الى امل او عزاء

او سلوى . التفت الى من جاء وجلس الى جواري . كان يبدو عليه نبل أولئك الذين لا يتحدثون كثيرا ، وغموضهم الساحر ايضا . كانت نظراته حانية تشعر في ظلها كأنك طفل في حضن ام رؤوم . نظرات آسرة ، حريرية ، لكنها لم تكن تخلو من شكاة مكبوتة بدورها . فبسمات ترفرف عليها حيرة لا تكاد تبدو على شفتيه طيف ابتسامة .. شعره وخطه المشيب ، فبدا خليطا من الابنوس وخيوط الفضة . وقد زاد المشيب الذي في شعره من اطمئناني اليه ، فهو شخص محنك ولا شك . تجربته للحياة تجعله اقدر على فهم شكاة رجل مثلي . او على الاقل لو زل لساني وتطرق الى عبارات شائكة فان التاج الفضي على رأسه لن يجعله يقدم على ايذائي ، وبالكثرة من يتخذون من الاصدقاء والتبليغ صنعة لهم . وماذا لو افضفض لحظة مخلوق اضناه نمط الحياة الذي قيد اليه مثل جاموسة في ساقية عتيقة .

لم يضايقني صمته ، كنت انظر الى عينيه الوادعتين وازداد ارتياحا . اخرون عندما تشكو اليهم لا يلبث ان يبدو في عيونهم شرود ، وسرعان ما تدرك وانت تواصل شكاتك انك تصبح في بيداء خاوية ، وان من تشكو اليه ، وان كان يهز لك راسه موافقا على كلامك ، ان اذنه من عجين والاخرى من طين ، وقد انصرف الى مشاغله يغوص فيها . يعيرك اذنا بلا قلب ، فيدخل الكلام من اليمين ، ويخرج من الشمال . واخرون اذا بدأت تشكو اليهم فاطعوك ، واخذوا يشكون لك متاعبهم هم ، كأنه ليس في الدنيا سواهم ، وانك لست بالنسبة لهم سوى حائط مبكى فحسب ، وكأنك لست من لحم ودم مثلهم ، بل من حجر اصم . والكلام ليس عليه جمرك ، فينهالون عليك بشكاويهم ، انت الذي تريد ان تشكو تستحيل الى مشكو اليه ! ويا لها من شكاوى غاية في التفاهة ! بينما شكواك انت ـ شكواك الحارة الجسيمة ، فانا عندما اشكو لا اشكو مثلهم من توافه ومتاعب ذاتية ، بل اعرض لامور جسام ، واتحول سريعا من الخاص الى العام واناقش القوانين والقضايا الكلية ـ شكواك انت تظل مكبوتة في صدرك .

وكيف لا تشكو ؟ اي شيء اشد انحلالا من ان تضطر الى الصرف في عالم اختل كل ما فيه بينما لا يرى الناس من حولك ان ثمة ما يدعو الى الانزعاج . ما اشد ما يحتاج المرء الى مواساة عندما تتأزم اموره ، ويبدو كل شيء من حوله فوضى واضطرابا وخرابا ، ان كل حوائط الدنيا تنهار على رأسه ، وكل اغلال الدنيا تكبل قدميه وذراعيه بل ورقبته ايضا ، وان في صدره الاف الشياطين تريد ان تخرج كلها من حلقه دفعة واحدة ، في كلمة واحدة !.

كانت في نظرات الرجل المستمع مودة وفهم ، تعاطف ومشاركة ، دهشة ومطالبة بالمزيد من التفاصيل والايضاحات ، ارتياح ومتابعة ، كانه يريد ان يقول لي في لحظة : « اجل ، انا اوافقك » كنت اسأله من وقت الى اخر اثناء حديثي « هل تفهمني ؟ » فلم يكن يرد علي بانه لا يفهمني . كان ساكنا على طول الخط . كان يريد ان يستمع ويستمع فحسب . ربما كان قد تعب من الكلام في سابق ايامه ، وعاد من الغنيمة بالانصات . واني لاسألكم : ترى لو كانت تماثيل رودان او مختار تتكلم ، هل كانت ستبدو بهذا النبل والوقار الذي هي عليه الان بالسنتها الحجرية ؟

النسمات تهب من الشرفة البحرية . انا اجلس في تيار ، عرقي يتحول على ظهري الى خيوط من الماء المثلج . في هذا الوقت من السنة ياتي مستخدمو وعمال المؤسسات والشركات الى عيادة الطبيب تلمسا للاجازات المرضية ، وما احلاها ، وقد استنفدت الاجازات الاعتيادية في المصايف ، ولم يبق الا القليل من الاجازات العارضة الاسلم ان يدخر بها للاشهر الباقية من السنة ، اخريات سبتمبر موسم الاجازات المرضية ، وتزداد العيادة اكتظاظا ، فالدكتور اسكندر طبيب لاربع او خمس شركات ومؤسسات وما الذي يمنع ، طالما انها مقاولة مريحة ، وزيادة الخير خيرين ؟ باب الشرفة خلف جنبي الايمن . القشعريرة تسري في جسمي كله . لم آخذ اجازة منذ سنوات خمس واحس بقدمي باردتين . انا ناهض من انفلونزا مرتدة احسست انني سأرقد لا محالة بضعة ايام في السرير من جديد . والعمل المتراكم؟ الملفات المتضخمة ؟ التقارير المتأخرة ؟ والاحصائيات ؟ لا لا ماذا افعل؟ لا مخرج الا ان يتعطف علي عبدالله المرض ذو السترة البيضاء القذره فينادي اسم ابني لندخل من الباب الموعود الى غرفة المكتب . ياللخسارة انا لا ادخن السجائر حتى كنت اقدم اليه سيجارة علها تفتح لي الابواب !

دخل زبون ذو شارب رفيع وشعر لامع . لا بد انه ممثل سينمائي في منتصف العقد الثالث من عمره . اخرج بطاقة اعطاها لعبدالله. ادخلها الى الدكتور . فتح الباب وخرج مرحبا بالقادم الانيق . جذبه من يده . بالفة واغلق الباب وراءهما . ووقف عبدالله كحارس يدافع عن اسوار مدينة ضد هجمات البرابرة .

تعالت همهمات الاستنكار : الدور ؟ الوقت متاخر !..

ـ وهو احنا موش منتظرين من الساعة خامسة ؟!

ـ يا عبدالله .. انا عندي اولاد في البيت .. قافلة عليهم الشقة .. يعني اسيبهم يموتوا ؟! ده حرام ، والله ..

ـ الصبر طيب ، كلها دقيقتين ..

ـ يا عبدالله ، انا مسافر .. لازم ابات في البلد الليلة .. انت عارف انا هنا من الصبح ...

ـ تعبنا خلاص ..

ـ والله ، لو كنتم تعرفوا .. ده الدكتور .. وربنا المعبود ... متغدى الساعة خامسة .. النهار ده .. طلبوه في دار الشفا ... حالة مستعجلة .. الساعة ثلاثة .. والضهر في الجامعة .. محاضرات .. والصبح من الساعة تمانية على رجله في اوضة العمليات ..

فتح الباب على عجل . خرجت الممرضة تحمل طبقا من الصاج المطلي مليء بقطع القطن الملونة بالدماء . ومن فتحة الباب ظهر الدكتور يدير ازرار جهاز امتدت منه اسلاك الى اذني القادم الانيق .

ـ طيب ، اشمعنى ده ..

قال عبدالله بلهجة قريبة من لهجة الدكتور اسكندر :

ـ ده زميله .. الدكتور رحمي .. بتاع مستشفى المنيا .. إسه جاي من سويسرا .. بس يا خسارة ما فيش فايدة ..

كانت هذه لهجة مقنعة بردت من غيظ الحاضرين لحظة ، لكنه ما لبث ان عاد يتاجج في قلوب البعض :

ـ طيب ، واحنا مالنا .. ما كلنا منصابين .. وورانا مصالح.. واللا يعني ما لناش سعر ؟!

كان الرجل الكويتي الذي تربع على الاريكة ذات السند المكسور يحادث صعيديا عن التقدم والحضارة في بلده . اما المرأة البدينة ذات الخمسة اولاد ، فكانت تدس ثديها البارز من ثوبها الازرق اللامع في فم طفلها الرضيع على حجرها .

عادت الممرضة القذرة بالصحن الصاجي تخترق الردة الى باب غرفة الكشف . استشهد بها عبدالله فأكدت ان الدكتور لم يتناول غذاء الا في السابعة .

انتقل الحديث بين اثنين من الحاضرين الى الانفجار السكاني ،

ـ خمسة وتلاتين مليون .. وقريب اربعين .. لا العمارات سايعة .. ولا الاوتوبيسات مكفية .. ولا المستشفيات .. ولا ..

تعالت الجلبة :

ـ الواد جايسورق ، ياناس . ارحموا ..

نظرت الى ابني .. وجدته قد نام بين ذراعي امه في انتظار دوره

ترك لي جاري الوقت كله كي افضفض بما يجيش في صدري حتى تبرد النار التي في احشائي . وانا عندما اشكو لا اشكو من ارتفاع

سعر الارز مليمين او اختفاء الرنجة من الاسواق .. لا .. لا .. انني لا اشكو من هذه الصغائر .. مثل اولئك الذين يشكون .. المجتمع صندوق قمامة .. قيمة الناس هذه الايام بمقدار ما يختزنون من الارز والسكر ... مسكين ايها الانسان ، كم انت معذب ممزق .. كم انت مهان ..انا اشكو منه امورا ادهى من ذلك وأمرّ .. ولك ان تتصور بذلك مبلغ اهمية ما اشكو منه .. ان شكاوي ـ استغفر الله ـ ترقى في بعض الاحيان الى الشكوى حتى من رب العباد ،وكيف انه ينشر الحظوظ يمنة ويسرة ، فتتناثر هنا وهناك .. وماذا في ذلك ؟ اليس الله حقا ؟ اليس هو منظم الكون .. والنظام لا يأبى التظلمات ؟

عندما اشكو انصرف الى نفسي تماما ، وانكب عليها كسلحفاة سحبت جسمها داخل درعها الصلب ازاء خطر احست به .. اني اغوص في شكاتي لا استمع حينذاك الا الى نفسي .. كالفونوغراف .. يتكلم ويتكلم ولا يأبه بما حوله .. اني بعبارة اخرى .. اتشرنق .. اجل عندما اخوض في شكاتي وتجرفني بعيدا قد اكون ممسكا بمنديل او ورقة نقود وتقع من يدي فلا احس بفقدها ، وقد اسكرني انفعالي. وقد ينبهني الى ذلك انسان : يابيه .. يابيه .. حوش اللي وقع منك .. فاشكره بكلمة مقتضبة ، واواصل عرض وجهات نظري . كثيرون يقولون لي : طيب ، وانا مالي ، ده موش اختصاصي .. لكني امضي .. امضي .. من الدكتور اسكندر الى كل الاطباء .. ومن الاطباء الى الحياة في بيوتنا وعلاقاتنا ومواعيدنا واستهتارنا .. ومن الحياة الخاصة الى الحياة العامة ، كما هو معتاد .. اديت بانتقادات بارعة .. كان وجه جاري بصفائه يملاني طمانينة .. ويدفعني الى ان افضفض باقصى ما يمكن ان افضفض به .. كانت عيناه السوداوان تتفشاهما غشاوة حزن تجعلني احس بان ثمة من يستمع الى شكواي، من يصغي اليها ويشاركني افكاري ووجهات نظري .. تلك الشفتان اللتان ارتسمت عليهما ابتسامة خفيفة ثابتة ، ربما كانت راجعة الى تجعيدتين عميقتين عند ركني الفم . كان صاحبي ينظر الى وجهي نظرة نفاذة عطوفا ويتابع شفتي وهما تقذفان بكلمات الغمز والهجوم عينان واسعتان وحاجبان مرتفعان قليلا من الجنبين فيستفراب. انه من ذلك النوع النادر الذي يحب ان يصغي ولاننس فمه بحرف الا في النهاية ، وربما لا يتكلم على الاطلاق . انا اعرف جيدا هذا الصنف من الناس . كنت اريد ان اكون منهم ، وجاهدت لاكتسب هذه الصفة .. صفة الاصغاء .. والاصغاء الصامت بقدر الامكان ... ولكنني لم افلح في ان اكون من هذا النوع . كانت تغلبني طبيعتي المتمردة الثرثارة في النهاية . كنت اجد في ذلك راحة اكبر لقلبي المليء بالشكاوى . وكثيرا ما سببت لي ثرثرتي هذه مضايقات كنت في غنى عنها لو كنت ممن يلزمون الصمت الطويل الهيب .. اصغى،واهز راسي ، ولا اقول شيئا او على الاكثر اقول كلمة او كلمتين في النهاية .

ازداد جاري التفاتا اليّ ،في عينيه اللتين يخيم فيهما ظل من الالم والشكوى المدفونة . كانت عيناه تذكراني بعيني الراهبة في لوحة احمد صبري المشهورة وهما تبسطان عليك نظرتهما متسائلتين في ادب وذوق وحسن فهم ، كما لو كانتا تقولان لك اني فاهمة .. مدركة .. مقدرة .. كان جاري بشبك راحتيه على ركبة ساقه اليمنى التي اسندت على اليسرى . عيناه مثل قاربي نجاة . احسست نحوه باعجاب وامتنان وانا استرسل في الافضاء بما في قلبي .

اخرجت منديلي وعطست . كان التيار من خلف ظهري باردا . تمنيت ان يغلق احد باب الشرفة البحرية . كدت اصبح طالبا ذلك ، لكنني ضغطت على لساني ، وآثرت ان امضي في شرح وجهات نظري في الحياة والتنظيم والعالم الاخر والحقوق المتبادلة .

اريد احدا يفهمني .. ولا يضطرني ان اقول له : « بس خليني اكمل كلامي » اريد احدا يفهمني،وها انا اجده ، او فليدع انه يفهمني ويتركني على سجيتي . ان اكذوبة قد تكون ابلغ اثرا من حقيقة كبرى.

اثناء حديثي الى جاري ـ وهذا تنبهت اليه ـ دخل شاب يرتدي قميصا وبنطلونا .. اوما الى جاري من بعيد ..ثم جلس الى مقعد بجوار باب الشقة . كان المقعد الوحيد الخالي في الردهة خلا قبل دخوله بلحظات . كان الفتى يمسك بين يديه لفافة في حجم الكف. لا بد ان بداخلها علبة وزجاجة دواء اشتراها من الصيدليات المنتشرة تحت العمارة ، شيئا من هذا القبيل . لوّح بها الى جاري . ثم امسكها في حجر . اوما له جاري واصلت الحديث . تنهدت فقد كنت قد قلت الكثير ، لكن كان لا زال في قلبي الكثير ايضا .

خرج الدكتور مع الدكتور رحمي وتوجها الى الشقة المقابلة .. شقة العمليات .. قال عبدالله انه سيجري له كشفا شاملا . عندما غابا هناك نهضت وذهبت الى الشقة الثانية .. اربع غرف ملآنة باولاد يبكون وينامون على بطونهم .. ويكادون ان يكونوا غائبين عن الوعي .اجرى لهم استئصال اللوزتين في الصباح .. كان باب غرفة العمليات مفتوحا . الدكتور اسكندر يقيس لزميله الضغط .. ارتسمت ابتسامة وادعة مطمئنة على شفتي الزميل كل من يحل عليهم الدور ، ويقدر لهم ان يدخلوا للكشف او العلاج تبدو على شفاههم ابتسامات الرضا والطمانينة .. ربما ينسون ايضا متاعب الردهة والانتظار .

عدت . جلست الى مقعدي السابق . قلت لجاري بلهجة ساخرة: كل شيء له اخر . ثم ظهر الدكتور اسكندر وزميله المريض عائدين من المستشفى المقابل . دخلا غرفتهما ، واغلق عبدالله الباب خلفهما من جديد . وقال ربما دعاية لمخدومه :

ـ الدكتور رحمي لف على دكاترة اوروبا كلهم !

قال الصعيدي وطيد البيان ذو الشارب المفتول وقد رابط الى جوار باب الطبيب

ـ سايق عليك النبي .. يا عبدالله .. ادخل الاولاد الصفاردول.

اشار الى ابني ، وطفل المراة التي تركت في البيت اولادا يتعرضون للاخطار .

قلت له بابتسامة مريرة :

ـ وانت ياحاج .. موش من الصبح برضه ؟

رد بشهامة :

ـ احنا .. على كل حال .. نقدر نستحمل .. انما الاطفال والحريم ..

خرج الدكتور رحمي من الغرفة بعد ان حياه الدكتور اسكندر بحماس ومودة .. وعاد الى مكتبه ،وقد ثبت على جبينه عدسة محاطة باطار اسود .

دخل عبدالله مع الدكتور ، واغلق الباب وراءه .. ثم عاد وفتحه بحركته المفاجئة السريعة ووجه الكلام لجاري بصوت مرتفع :

ـ الجهاز .. جهاز السمع جبتوه ؟

استدرك . والتفت الى مرافقه الشاب عند الباب ، وقال له بصوت عادي :

ـ سماعة الاذن .. السماعة صلحتوها ؟

مد اليه المرافق يده باللفافة واشار الى جاري فنهض .وهرول الاثنان الى غرفة الكشف . اغلق عبدالله الباب خلفهما وواصل طمانته للزبائن القلائل الذين بقوا في الردهة حتى قبل منتصف الليل بقليل .